النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٣ —

لم يقف ابن سينا عندما تقدم فى إثبات وجود النفس ومغايرتها للبدن، بل افترض فرضاً آخر هو من أبدع حججه وأكثرها ذيوعاً، ونعنى به فرض الرجل المعلق فى الفضاء. فلو تصورنا أن شخصاً ولد مكتمل القوى العقلية والجسمية، ثم غطى وجهه بحيث لا يرى شيئاً مما حوله، وعلق فى الهواء أو بالأولى فى الخلاء كى لا يحس بأى احتكاك أو اصطدام أو مقاومة، ووضعت أعضاؤه وضعاً يحول دون تماسها أو تلاقيها، فانه لا يشك بالرغم من كل هذا فى أنه موجود وأنه كان يعز عليه إثبات وجود أى جزء من أجزاء جسمه. بل قد لا تكون لديه فكرة ما عن الجسم والوجود الذى تصوره مجردا عن المكان والطول والعرض والعمق، وإذا فرض أنه تخيل فى هذه اللحظة يداً أو رجلا فلا يظنها يده ولا رجله، وعلى هذا إثباته أنه موجود لم ينتج قط عن الحواس ولا عن طريق الجسم بأسره؛ ولا بد له من مصدر آخر مغاير للجسم تمام المغايرة وهو النفس[1]. يقول ابن سينا: «يجب أن يتوهم الواحد منا كأنه خلق دفعة وخلق كاملا، ولكنه حجب بصره عن مشاهدة الخارجات، وخلق يهوى فى هواء أو خلاء هوياً لا يصدمه فيه قوام الهواء صدما مايحوج إلى أن يحس، وفرق بين أعضائه فلم تتلاق ولم تتماس، ثم يتأمل أنه هل يثبت وجود ذاته فلا يشك فى إثباته لذاته موجوداً، ولا يثبت مع ذلك طرفا من أعضائه ولا باطنا من أحشائه ولا قلبا ولا دماغا ولا شيئا من الأشياء من خارج، بل كان يثبت ذاته ولا يثبت لها طولا ولا عرضا ولا عمقا. ولو أنه أمكنه فى تلك الحال أن يتخيل يداً أو عضواً آخر لم يتخيله جزءاً من ذاته ولا شرطا فى ذاته؛ وأنت تعلم أن المثبت غير الذى لم يثبت، والمقر به غير الذى لم يقر به، فإذن للذات التى أثبت وجودها خاصية لها على أنها هو بعينه غير جسمه وأعضائه التى لم يثبت[1]». وواضح أن هذه البرهنة قائمة على أن الأدراكات المتميزة تستلزم حقائق متميزة تصدر عنها، وأن الانسان قد يستطيع أن يتجرد من كل شىء اللهم إلا نفسه التى هى عماد شخصيته وأساس ذاته وماهيته. وإذا كانت الحقائق الكونية كلها تصل إلينا بالواسطة فهناك حقيقة واحدة ندركها إدراكا مباشراً ولا نستطيع أن نشك فيها لحظة، لأن عملها يشهد دائما بوجودها. وما أصدق سقراط حين قال: اعرف نفسك بنفسك. ولئن كنا نستدل على وجود جسم ما بالحيز الذى يشغله فالتفكير الذى هو خاصة النفس الملازمة لها دليل قاطع على وجودها

وقد سبق إلى هذا المعنى أغسطين فيلسوف المسيحية فى القرن الخامس الميلادى وسلك فى البرهنة على وجود النفس سبيلا تشبه من بعض الوجوه السبيل الآنفة الذكر، فذهب إلى أن الجسم والنفس حقيقتان متميزتان تمام التميز، ففى حين أن الأول يشغل حيزاً وله طول وعرض وعمق لا حيز للثانية مطلقا، وخاصيتها الوحيدة هى التفكير؛ ومن أجل هذا كان شعورنا بها وإدراكنا لها ادراكا مباشراً، فان الفكر لا يحتاج إلى واسطة فى فهم ذاته، وما دامت النفس تفكر فهى موجودة، لأن تفكيرها يساوى وجودها تمام المساواة. وقد يستطيع الانسان أن يتجرد عن جسمه وعن العالم الخارجى فى كل مظاهره، وأن ينكر الحقائق على اختلافها وأن يشك فى كل شىء إلا نفسه التى هى مصدر شكه ومبعث تفكيره فإنه لا يجد إلى الشك فيها سبيلا[2]

وهنا نتساءل: هل تأثر ابن سينا بأغسطين أم الأمر مجرد توافق خواطر؟ لم يثبت مطلقا أن مؤلفات الأخير نقلت إلى العربية، ولا نجد أية وسيلة سمحت لابن سينا بالأخذ عنه، ويرجح الأستاذ جلسن أنهما معا صدرا عن أصل اسكندرى ولاسيما وهما شديدا

(١) ابن سينا، (الاشارات)، ١١٩ — ١٢٠ (الشفاء)، جـ ١، ص ٣٦٢.

(١) ابن سينا، (المصدر السابق)، جـ ١، ص ٢٨١.

(2) St Augustin, (De trinitate), X, cap. X, art. 13-16.- Gilson, (Introduction à l'étude de St Augustin), 56-59.

التعلق بأفلوطين وتعاليمه[١] ، بيد أنا لم نقف على شيء مما وصل إلينا يشهد بأن رجال مدرسة الاسكندرية حاولوا البرهنة على وجود النفس على النحو السابق . ولسنا ندرى ما المانع أن يكون برهان الرجل المعلق فى الفضاء من ابتكار ابن سينا واختراعه ، خصوصا وهو قد عودنا صوراً فرضية أخرى كثيرة كحديث حى بن يقظان ورسالة الطير التى تدل على خيال خصب ومهارة فى التصوير . وعلى فرض أنه عالة على من قبله فى بعض عناصر برهانه ، فليس هناك شك فى أن الصورة الجذابة التى صوره بها من بنات فكره وانتاجه الشخصى ، ويخيل إلينا أنه كان مغتبطا بفنه معجبا بتصويره ، ولا أدل على هذا من أنه أبرزه مرتين فى كتاب الشفاء وعاد إليه مرة ثالثة فى اشاراته [٢]

وهذا التصوير هو الذى ميز برهنته من برهنة أغسطين وان كانتا تلتقيان فى الغاية والمرمى ، وهو الذى استلفت أنظار فلاسفة القرون الوسطى المسيحيين واستولى على نفوسهم ، فأعاده الكثيرون منهم بنصه أحياناً ، وخاصة أتباع أغسطين مثل غليوم الأقرنى وحنا الروشينى ، وكأن هؤلاء قد ازدادوا تعلقاً بالفيلسوف العربى حين رأوه يقترب من أستاذهم اللاتينى [٣] .

ولا نظنا فى حاجة إلى أن نشير إلى أن كتاب الشفاء ترجم إلى اللاتينية . وكان للجزء المتعلق بالنفس منه أكبر الأثر فى رجال الفلسفة المسيحية ، ولم يكد دومينقوس جندسالينوس يترجمه فى القرن الثانى عشر الميلادى حتى أقبلوا عليه يتدارسونه ويأخذون عنه مختلف الآراء ، ولا يرون على أنفسهم غضاضة فى أن يعزوا البرهان الذى نتحدث عنه إلى صاحبه ومبتكره ابن سينا

ويظهر أنهم استمروا يرددونه فيما بينهم إلى عصر النهضة وإلى أن جاء ديكارت فنادى بمبدئه المشهور Le Cogito الذى ينطوى على أفكار أغسطين وسينويه ، فى بحثه عن الحقيقة عاهد نفسه على أن يرفض كل ما يتطرق له الشك ، لأن حواسنا فى حال اليقظة تخدعنا وتنقل الينا العالم الخارجى نقلا مشوها ، ومخيلتنا أثناء النوم تغدق علينا صوراً وأوهاماً لا أساس لها . وأخذ يشك فى كل شيء إلى أن انتهى به شكه إلى حقيقة ثابتة هى أنه يفكر ؛ ومادام يفكر فهو موجود ، وفى مقدور الشكاك واللاأدريين أن يهدموا الحقائق على اختلافها إلا هذه الحقيقة التى تحمل معها برهانها [١] .

يقول ديكارت : « قد أستطيع أن أفترض أن لاجسم لى وأن لا عالم ولا مكان أحل فيه ، ولكنى لا أستطيع لهذا أن أفترض أنى غير موجود ، بل على العكس ينتج قطعاً وفى وضوح من شكى فى حقيقة الأشياء أنى موجود . . . فقد عرفت إذن أنى جوهر ذاته وطبيعته التفكير ، ولا يحتاج فى وجوده إلى مكان ولا يخضع لشيء مادى ، وعلى هذه الصورة الأنا أو النفس التى هى أساس ما أنا عليه متميزة تمام التميز من الجسم ، بل هى أيسر معرفة منه ، حتى فى حال انعدامه لا تنقطع هى عن أن توجد مع كل خصائصها » [٢] .

هذا هو الكوجيتو [٣] الديكارتى القائل : « أنا أفكر فأنا إذن موجود » . وهذه هى البرهنة عليه . ولا يجد القارىء صعوبة فى إدراك وجوه الشبه بين هذه البرهنة والبرهنتين السابقتين الأغسطينية والسينوية ، وقديماً لاحظ أرنولد أن ديكارت يحاكى أغسطين تمام المحاكاة فى إثباته وجود النفس وتميزها من البدن[٤] ولم يبق مجال للشك فى أن أبا الفلسفة الحديثة قرأ مؤلفات أغسطين وخاصة ما اتصل منها بالنفس وخلودها [٥] وحديثاً استطاع المسيو ليون بلنشيه أن يبين فى سعة وتفصيل جديرين بالاطراء الأفكار التى سبقت الكوجيتو الديكارتى ومهدت له [٦] ، غير أنه فاته أن يشير إلى الصلة بينه وبين برهان الرجل المعلق فى الفضاء . وقد حاول أخيراً المستشرق الايطالى فورلانى أن يتلافى هذا النقص ، فكتب فى مجلة Islamica فصلا عنوانه

(١) Gilson, (Archives), r. IV, P. 41 en bas.

(٢) ابن سينا ، (الشفاء) ، جـ ١ ، ص ٢٨١ ـ ٢٨٢ ، ٣٦٢ = (الاشارات) ، ١١٩ ـ ١٢٠ .

(٣) Gilson (Archives), r, 53, IV, 41-42 en bas.

(١) Descartes, (Discours), 31-33 (éd. Tannery)

(٢) (Thid.;) ef. (Meditatio 11).

(٣) فضلنا تعريب هذه الكلمة اللاتينية الأصل لما لها من منزلة تاريخية .

(4) Hamelin, (Le système de Descartes), P. 122.

(5) Bréhier, (Histoire de la plùlos.), 11,73.

(6) L. Biancher, (Les antécédents historique du je perse donc je suis), Taris, 1920.

«ابن سينا والكوجيتو الديكارتى» [1]. وفيه يعرض برهان الفيلسوف العربى وترجمته اللاتينية القديمة، ثم يقارنه بما جاء به ديكارت موجها عنايته الكبيرة إلى بيان أثر الحواس والمخيلة لديهما، وينتهى بعد كل هذا إلى النتيجة الآتية: وهى أنه يستبعد أن يكون ديكارت قرأ ابن سينا رأسا لقلة المطبوعات وعدم تداول مؤلفاته فى الأيدى، ويرجح أن يكون قرأه عن طريق غليوم الأقرنى [2]

ولكنا نلاحظ أن ترجمة كتاب الشفاء اللاتينية، أعيد طبعها فى فينيس ثلاث مرات بين سنة ١٤٩٦ وسنة ١٥٤٦، فتكون آخر طبعة منها ظهرت قبل ميلاد ديكارت بخمسين سنة فقط. ونحن نعلم كيف أثيرت مشكلة النفس وخلودها لعهده، فمن المحتمل أن يكون الباحثون قد لجأوا الى كل المصادر الممكنة لحلها. وابن سينا من أطول الناس حديثا فيها وأكثرهم غراما بها. وقد أبان رينان من قبل مقدار تعلق السربونيين ورجال الدين فى باريس بالفلسفة الاسلامية بوجه عام ومناقشتهم لها وردهم عليها وبحثهم عن أصولها ومصادرها، فلا يمكن أن تكون قد فاتتهم مطبوعات فينيس المتقدمة [3] وفى مكتبة باريس الأهلية أكثر من نسخة من هذه المطبوعات، ويغلب على الظن أنها وصلت السربون منذ ذلك التاريخ [4]: وإذا كان أرنولد قد أشار إلى أغسطين فقط ليبين أن ديكارت عالة على من قبله. فلعل ذلك راجع إلى أنه تخير شخصية معروفة من العالم المسيحى المحيط به

على أن ديكارت لم يتنبه إلى ابن سينا بواسطة غليوم الأقرنى فقط، بل يغلب على ظننا أنه اهتدى اليه أيضاً فى ثنايا مؤلفات روجير بيكون التى قرأها وتأثر بها فى نواح مختلفة، ومهما يكن فسواء أقرأ ديكارت ابن سينا مباشرة أم عن طريق غير مباشر فكل الدلائل قائمة على أن برهان الرجل المعلق فى الفضاء جدير بأن يعد بين الأفكار التى سبقت الكوجيتو الديكارتى ومهدت له [1]. وإذا كان ديكارت مديناً لأغسطين بشىء فى صوغه وتصويره فهو مدين بدرجة لا تقل عن هذا لابن سينا كذلك، خصوصاً وإلى الأخير يرجع الفضل فى بعث أفكار أغسطين من مرقدها وتوجيه اللاتينيين من جديد نحوها توجيهاً نشيطاً فى الأربعة قرون السابقة لديكارت. وهو مع زميله ابن رشد قد أثارا فى العالم الغربى منذ القرن الثانى عشر مشكلة العقل والنفس ونظرية المعرفة بوجه عام اثارة امتد صداها إلى عصر النهضة.

وغنى عن البيان أنه لا يعيب الكوجيتو مطلقاً أن يكون بعض الباحثين قد اهتدى إليه من قبل عن طريق آخر، فان اتفاق الآراء على أمر من الأمور يزيده قوة فوق قوته ويقيناً إلى يقينه. وليس ثمت داع لأن نجهد أنفسنا، كما صنع هملان وغيره فى أن نثبت بأى ثمن أن ديكارت مبدعه الأول، فان هذه محاولة فاشلة ولا تتفق مع روح البحث العلمى الحديث [2]. ولا يعيب ديكارت نفسه أن يكون قد سبق اليه فى صورة غير الصورة التى أظهره فيها، وثوب غير الثوب الذى ألبسه إياه، فان الفكرة الواحدة تتشكل بأشكال مختلفة تبعاً للمذاهب الفلسفية التى تبدو فيها

يتبع

ابراهيم مدكور

(1) G. Furlani, (Auicenna e il Cogito).
(2) (Thid.), P. 70.
(3) Renan, (Averroès), 267-78.
(4) Catalogue de la Bibliothèque nationale, Réserve, R. 82 (1), 82 (2), 83, 618.

(١) يوافقنا الأستاذ جلسن كذلك على هذا الرأى
(Archives, I, 63 en bas).
(2) Hamelin, (Le système de Descartes, 122. 23

التلميذ

الرواية الخالدة التى وضعها كاتب فرنسا العظيم

بول بورجيه

ونقلها إلى العربية

الأستاذ عبد المجيد نافع

فى أسلوب عربى مبين

تباع فى جميع المكاتب الشهيرة والثمن عشرة قروش صاغا